

صلاح حافظ

مستقبل بلا معجزات !

obeikandi.com



obeikandi.com



لو كان السادس من أكتوبر «معجزة» ، كما يقال ، ما كان لنا بعده مستقبل !
إن قيمة الحدث التاريخي أنه يجري حسب طبائع الأشياء ، لا عكسها ؛ في حين أن المعجزة تجري عكس هذه الطبائع ، ولهذا لا تكون إلا حدثاً عارضاً ، ولا يكون لها من بعد أثر أو مستقبل .
عندما أراد العقاد - في كتابه عن عبقرية محمد - أن يدل على نبوة الرسول جعل في مقدمة الأدلة أن العصر كان في حاجة إلى نبي ، وكان محتملاً أن يظهر .

وينطبق هذا القول بحذافيره على أى حدث تاريخي آخر .
فالثورة الأمريكية غيرت وجه التاريخ لأنها جاءت في اتجاه حركته الطبيعية ، حركة الاستقلال القومي . والثورة الفرنسية فعلت الشيء نفسه ، لأن الإقطاع الذي قامت ضده كان من طبائع الأشياء أن ينتهي حكمه . والثورة السوفيتية لم تهز العالم إلا لأن الاشتراكية هي المستقبل الطبيعي لتطور المجتمع الإنساني . ولو كان انتصار أى من هذه الثورات معجزة لما تغير بها شيء ، ولما ذكرها التاريخ إلا على

هامشه كحادث ثانوى عارض .

ونحن فى أيامنا هذه نقرأ مئات الأخبار كل يوم ، ثم ننساها . ولكننا لا ننسى حين يكون الخبر - على سبيل المثال - استقلال الجزائر ، أو هزيمة غزو كوبي ، أو إطلاق أول قمر صناعى ، أو اكتشاف دواء حاسم للسرطان . لا لأن كلاً من هذه الأخبار معجزة ، ولكن لأن كلاً من هذه الأخبار كنا نتوقعه ، وكان حكم التاريخ أن يحدث ذات يوم ؛ فلما حدث شعرنا أن التاريخ خطأ إلى الأمام . وأطلقنا عليه تعبير « الحدث التاريخى » !

بهذا المعنى كانت ثورة يوليو تاريخية .

وبهذا المعنى أيضاً كان ٦ أكتوبر يوماً تاريخياً .

كان حكم التاريخ أن يحطم شعب مصر أسوار هزيمته ، وأن يعبر لاسترداد أرضه . ولولم يحدث هذا فى أكتوبر لحدث بعد شهر ، أو سنة ، أو جيل ؛ لأن طبائع الأشياء أن الشعوب لا تقهر ، وأن العدوان لا يدوم ، ولأن طاقة شعب مصر ، والشعوب العربية ، أقوى ألف مرة من طاقة العصابات العسكرية فى إسرائيل . مهما كانت مدججة بالسلاح .

ولهذا فإن ما يستحق أن يوصف بالمعجزة ليس انتصار أكتوبر ، وإنما انتصارات إسرائيل السابقة عليه ، فكلها كانت عكس منطق التاريخ ، وكلها - وهذا السبب - كانت مؤقتة ، ولم يكن لها مستقبل ، ولم تغير شيئاً فى تاريخ المنطقة .

لقد احتلت إسرائيل سيناء كلها عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك ظل العالم هو العالم ، لم يتأثر اقتصاده ، ولا تناقضاته ، ولا أساليب تسليحه ، ولا موازين القوى فيه .

ثم زحف الجيش المصرى فى أكتوبر ، واحتل شريطاً من سيناء . . فإذا بكل موازين العالم تختل ، تنهار فيه أحلاف عمرها ربع قرن ، وتتغير استراتيجيات عسكرية وسياسية ، وتودى أزمة الطاقة إلى ظهور قوة عالمية جديدة اسمها العرب ، و . . . و . . . إلخ .

لماذا ؟

لأن احتلال سيناء عام ١٩٦٧ كان « معجزة » إسرائيلية . والمعجزات لا تغير التاريخ ، في حين كان استرداد شريط من الأرض في أكتوبر من طبائع الأشياء ، وكان وقوعه إعلاناً بأن التاريخ بدأ يستأنف مسيرته الحتمية ، وبأن الباب قد فتح لتطورات أخرى ، ومستقبل جديد ، مختلف .

إن هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية قبل أن أصوغ تصوري لمستقبلنا بعد ٦ أكتوبر .

فأنا أنبئ هذا التصور - ببساطة - على اتجاه الحركة الطبيعية للتاريخ . وأعتبر أن مجد أكتوبر هو أنه حرر هذه الحركة من « سجن هزيمة يونيو » ، وقال للتاريخ : تقدم ، واصل مسيرتك !

وفي اعتقادي أن المستقبل الذي فتح أكتوبر الباب أمامه له أكثر من وجه . وأن كلا من هذه الوجوه يستحق أن نتأمله على حدة . . .

الوجه الأول : فلسطين الديمقراطية

فليكن الوجه الأول فلسطين ، باعتبارها رمز القضية ، ومصدرها ، وشعارها . إن المستقبل الفلسطيني ، كما يحتم التاريخ ، هو الدولة الديمقراطية التي تجمع كل الأديان . فانفصال الناس دُولاً على أساس أديانهم لم يعد يسمح به العصر . وإسرائيل ، من الناحية التاريخية ، نكسة إلى الوراء . أو مطباً على طريق التاريخ لن يلبث حتى يضيق به العالم ، إن لم يضق به أصحابه أنفسهم .

وقد فتح أكتوبر باب هذا المستقبل عندما أثبت أن إسرائيل اليهودية العنصرية المتعصبة قابلة للهزيمة ، وأنها ليست الحل الذي يضمن الأمن والسلام لليهود العالم .

وقد كان في إسرائيل منذ إنشائها تيار يرى أن « الدولة اليهودية » ليست حلاً لمشكلة اليهود . . مهما تسلحت ، ومهما بطشت ، ومهما استعانت بالقوى اليهودية العالمية ؛ ولكن هذا التيار كان دائماً خافت الصوت ، وكان موضع السخرية .

والآن جاء انتصار أكتوبر يجبر الإسرائيليين على الإنصات إليه ، ويتيح له أن يكون هو المستقبل .

وفي اعتقادي أنه سيجيء يوم يزور فيه العرب تل أبيب وحيفا وبئر سبع ، في دولة فلسطين الديمقراطية ، وسيذكرون يومها أن البداية كانت ٦ أكتوبر !

الوجه الثاني : مصر الاشتراكية

أما الوجه الثاني للمستقبل ، فهو في اعتقادي : مصر الاشتراكية . إن الاشتراكية هي تيار التاريخ . وفي مصر ابتليت الاشتراكية بأخطاء التصقت باسمها ظلماً . وقبل أكتوبر اتهمت بأنها سبب هزيمة يونيو ، وكاد يكرهها حتى المستفيدون منها ، وكاد زحفها يتجمد إلى الأبد .

لكن أكتوبر أعاد فتح الطريق لها .

فالنصر الذي حققه ثبت أنه كان مستحيلاً لولا وجود القطاع العام ، ومساهماته ، وخضوعه لتخطيط الدولة وتوجيهاتها وتكليفاتها .

وكل ما قاتل به الجيش المصري من أسلحة ومهمات - غير الواردة من الخارج - كان من صنع العمال ، وتوفر للمقاتلين بفضل تضحيات هؤلاء العمال ووطنيتهم وفدايتهم .

والتقوات المسلحة التي حققت النصر كان معظمها من أبناء العمال والفلاحين ، وما كان يمكن أن تنتصر لولا أن العلم أتيح لها مجاناً ، ولولا أن الثورة رفعت مستوى وعيها السياسي والاجتماعي ، وحوّلتها من أدوات خاضعة إلى قوى حرة شاعرة بكرامتها ومدركة مسؤولياتها الوطنية . وقبل الثورة كان الجندي المصري فرداً في قطيع يساق برغم أنفه إلى قتال لا يفهم سببه . وما كان يمكن أن يتغير هذا الوضع بغير الثورة والاشتراكية .

إن تجربة أكتوبر - باختصار - قد أنصفت الاشتراكية . وأكدت أنه لا بديل ، لكي نستكمل النصر ، من مواصلة الطريق الاشتراكي والتمسك بإنجازاته المادية والبشرية .

الوجه الثالث : مصر العلم

وجه آخر ، ثالث ، لمستقبلنا بعد أكتوبر . . يمكن أن نطلق عليه اسم :
مصر العلمية !

إن اتجاه التاريخ هو العلم . ولم يعد ممكناً أن يحلّ إنسان العصر قضاياه إلا بواسطته . وكل يوم يمضي يكتسب العلم أرضاً جديدة ، ينتزعها من سلطان الخرافات المتخلفة ، والعلم أصبح يفرض نفسه على الحياة اليومية حتى الذين يشككون فيه ، ويعادونه . بفضلله يأكلون ويشربون ويلبسون ، وإليه يلجأون في الصحة والمرض ، وفي الغنى والفقر . ومهما خطبوا ضده فإن كلا منهم يجاهد لكي يسلح أولاده به ، ولا يطمئن - في أى تصرف شخصي - إلا إلى أحكامه .

وقد جاء أكتوبر يدفع عجلة هذا التطور العلمي دفعة هائلة إلى الأمام . . . عندما أثبت أن حلم العبور الذي كان مستحيلًا صار ممكناً بالتخطيط العلمي .
درست القيادة ، علمياً ، امكانيات سلاحنا وسلاح العدو ، وأعدت لكل سلاح يتفوق به العدو سلاحاً مضاداً يشلّ فاعليته .

درست خطة الهجوم ، وظروفها ، وموعدها ، على ضوء علمي بحث . واختارت الموعد بعد حساب علمي دقيق لظروف العدو ، وظروف الجو ، وظروف تيارات الماء في القناة ، وظروف الخط الحصين الذي سيكون على جنودنا اقتحامه . . إلخ .

درست كل شيء بعقلية علمية ، لا تترك شيئاً للمصادفة ، ولا تترك شيئاً للحظ ، أو الأوهام .

وبينما أنصار الجهل والخرافة يهاجمون العلم على أساس أنه ضد الإيمان ، جاء أكتوبر يثبت أنه السلاح الأول للإيمان ، وأنه لا انتصار للدين بغير علم ، ولا قيمة لجهاد إذا كان لا يتسلح به .

ولأن انتصار أكتوبر ما يزال مهدداً ، والعدو يستعدّ كل يوم لمحاولة إجهاضه ، فإن الحاجة إلى العلم صارت أكثر مساساً مما كانت قبل أكتوبر .

ومع كل تطور جديد في قوات إسرائيل العسكرية أصبح علينا أن نتسلق في العلم إلى مستوى أعلى .

ومعنى هذا ان مصر بعد أكتوبر قد صار قدراً عليها أن تعيش العلم أكثر فأكثر ، وأن أكتوبر قد فتح الباب أمامها إلى اللحاق بالعصر ، بل أرغمها على ذلك . من أجل أن تحتفظ بانتصارها .

الوجه الرابع : مصر الديمقراطية

كسبت مصر حرب أكتوبر دون أن تعلن أحكاماً عرفية ، ودون أن تستخدم السلطة فيها أى قانون من القوانين الاستثنائية .

وقبل هذا كانت القاعدة أن تحكم مصر بالسلطة المطلقة . وكانت هذه القاعدة عكس اتجاه التاريخ ، الذى يقضى بأن الشعوب فى النهاية هى السلطة العليا ، وبأن المستقبل ، فى النهاية ، لديمقراطية الشعب الفقير الكادح . لكن اتجاه التاريخ ، وحكمه ، لم يتح لهما قط أن يفرضا سلطانهما فى مصر .

وثورة يوليو أعظم حدث فى تاريخنا الحديث تمسكت بأن تكون من أعلى ، وبأن تحقق إنجازاتها التاريخية بإدارة القادة وحدهم . واستخدمت عدداً من القوانين الاستثنائية ، والأجهزة غير القانونية ، مما لم يسبق مثله فى تاريخنا كله . وكانت تتصور طول الوقت أنها إذا تخلت عن هذه الأسلحة الباطشة فسيخذها الشعب ، ويسير مع أعدائها . وستدرج إلى الوقوف ضدها وضد نفسه !

وقد كان هذا التصور المصدر الحقيقى لكل سليات يوليو وهزائمه ، بما فى ذلك هزيمة ١٩٦٧ ؛ فبالخوف من الديمقراطية حكمت مراكز القوى ، وفرضت على الشعب زعامات « ثانوية الجانب » لا تمثله ، ومنحت السلطة للذيول بدلاً من الأنصار ، بل إنها سجنحت مئات من أنصارها لأنهم « خطرون » ، يؤيدونها من موقع الحرية !

وكانت ثورة يوليو تبرر هذا الخوف من الديمقراطية بمبررات كثيرة ، تحولت مع الزمن إلى نظرية متكاملة . . هى التى قادت فى النهاية إلى هزيمة يونيو القاتلة .

لم يدحض هذه النظرية إلا ٦ أكتوبر .

قبله ألغيت كل الإجراءات الاستثنائية ، وخرج المعتقلون من معتقلاتهم .
وأعيد الصحفيون المطرودون إلى أعمالهم . ثم بدأ القتال دون أن تعلن حتى الأحكام
العرفية ! فإذا كانت النتيجة ؟

لم يخذل المعركة أحد ، ولم تحدث محاولة انقلاب ، ولم يختل الأمن .
ولم تخف السلع ، ولم ينتهز اللصوص المحترفون الفرصة ، وثبت أن الديمقراطية هي
الضمان الحقيقي لوجود جبهة داخلية متحدة ، متفاعلة مع جبهة القتال بصورة
إيجابية .

ومن يومها والديمقراطية في مصر تزداد نفوذاً ، والخوف منها يتراجع حتى يكاد
يختفي . وفي جو الحوار الدائر الآن حول مستقبل الاتحاد الاشتراكي ، والأحزاب ،
وتعديل الدستور ، يبدو واضحاً أن المستقبل في مصر قد صار - بصفة قاطعة -
في اتجاه الديمقراطية ، وأن وجه مصر الحقيقي الحر هو وجهها للمستقبل .

الوجه الخامس : مصر المصرية !

من وجوه المستقبل أيضاً ، بعد أكتوبر : مصر الساحة الدينية . مصر
المصرية .

إن حكم التاريخ هو أن تندثر في العالم فروق اللغة والعنصر والجنس والدين .
وقد حققت مصر في ثورة ١٩١٩ مستوى من الوحدة الوطنية ، والساحة الدينية ،
جعل القسس يخطبون على منابر المساجد ، والشيوخ يخطبون في هياكل الكنائس .
وسقط إلى الأبد ادعاء الإنجليز أنهم في مصر لحماية « الأقلية المسيحية » من
الأغلبية المسلمة !

كان الشعار وقتها : الدين لله ، والوطن للجميع .

لكن ثورة يوليو ، بخوفها من الديمقراطية ، واستنادها إلى السلطة وحدها . .
أتاحت للحاكمين ممارسة فرز المواطنين . فأصبح هناك « متجاوب » و « غير
متجاوب » ، « أهل ثقة » و « أهل كفاية » ، « خطررون » و « غير خطررين » ،

« شيوعيون » و « غير شيوعيين » . وكان حتماً أن تنتهي التقسيمات ذات يوم إلى « أقباط ومسلمين » .

فالنظام الذى يسمح بتقسيم أنصاره إلى فئتين لا مفر من أن يواصل التقسيم إلى أربعة ، ثم إلى ثمانية . ومصالح « الكواليس » التى تقوم بهذا التقسيم لا تتورع - ما دامت السلطة معها - عن اختراع مقاييس جديدة لفرز الناس كل يوم حسب أهوائها . ولا يعنىها ما تصيب من وحدة الوطن ما دامت تضمن مصالحها الضيقة الخاصة .

وقد وصلت مراكز القوى فعلا ، قبل سقوطها ، إلى حد استغلال لعبة « الأقباط والمسلمين » . واستخدمتها حسب مصالحها الخاصة . وروجت لها حتى كادت تجهض عملياً وحدة الأمة .

لكن أكتوبر جاء يعيد الأمر إلى نصابه .

عبر الجنود المسيحيون القضاة وهم يصبحون مع زملائهم المسلمين : الله أكبر ! وكان أول شهيد لهجوم الثغرة المضاد ، مسيحياً .

وعين الرئيس السادات ، بعد العبور ، قائداً مسيحياً لأحد الجيشين اللذين عبرا القناة .

توحدت الأمة مرة أخرى على أرض الجبهة . سجلت أرض أكتوبر - بالدم - أن النصر ليس قبلياً وليس مسلماً ، وإنما هو مصرى فقط .

ولا جدال فى أن مستقبلنا - بعد هذه التجربة - سيبدأ مما حققته ثورة ١٩١٩ . والدليل هو المحاولات المشبوهة التى نشطت فجأة ، بعد أكتوبر ، لاختلاق أية هوة بين جناحي الأمة . فهذا النشاط ليس إلا رد فعل - أو « حلاوة روح » - للعبة الاستعمارية التى أجهضتها تجربة أكتوبر . والتى أتوقع أن يكون إجهاضها هذه المرة أبدياً ، وإلى يوم القيامة !

الوجه السادس : مصر العربية

يبقى بعد هذا : الوجه الأخير ، والأكثر أهمية ، لمستقبلنا بعد أكتوبر .

إن مصر لن تعود دولة ، وإنما ستصبح إقليمياً في دولة عربية كبرى .
 إن هذا مصيرها التاريخي الذي لا جدال فيه . وهو ليس من صنع أكتوبر ،
 أو يوليو . وإنما هو صنع الأمر التاريخي الواقع . فالعالم كله يتجه إلى الوحدة بين
 البلدان ذات المصلحة الواحدة . وشعوب العالم العربي عاشت متحدة اثني عشر قرناً .
 ولم تتمزق إلى دول متفرقة إلا على يد الاستعمار ، ولفترة لا تتجاوز قرناً ونصف
 قرن . وحكم التاريخ هو أن تعود لتتحد ، وتواجه العالم كقوة كبرى جديدة ، أو
 كقوة قديمة عادت تدب فيها الحياة .

إن حكم التاريخ هذا قد تعثر طويلاً ، وعرقلته تجارب فاشلة . ابتداء من
 سوريا وانتهاء إلى ليبيا . وسيحضى بالتأكيد وقت طويل قبل أن يفرض نفسه ،
 ويتحول إلى أمر واقع .

لكن أكتوبر قد اختصر هذا الوقت بصورة حاسمة .
 ففي اللحظة التي اندلع فيها القتال نسبت كل البلاد العربية خلافاتها ،
 واتحدت وراء مصر وسوريا .

الجزائر أسرعت إلى خط المواجهة ، ودفعت بكل ماتملك إلى مصر ، العراق
 دفع بجيشه إلى سوريا لكي يواجه الزحف الإسرائيلي المضاد . السعودية قادت حرب
 البترول ، وزودت مصر بأموال تمكنها من الصمود الاقتصادي بعد القتال .
 اليمن الجنوبية أغلقت باب المنذب بالتعاون مع الأسطول المصري .
 ليبيا بعثت بطائرات ، وبترول . لم تناقش أية دولة عربية وقتها أى خلاف
 لها مع مصر وسوريا ، أو مع أية دولة عربية أخرى . حتى الذين ناقشوا جعلوا
 المناقشة على الهامش ، ولم يعطلوا بها مساهمتهم في المعركة .

وهكذا . . كان أكتوبر بمثابة « بيان عملي » يثبت للأمة العربية أنها في
 النهاية واحدة ، وأنها بالعقل الباطن لا تملك إلا أن تتحد وقت الخطر .

ثم إن أكتوبر فاجأ هذه الأمة بأن وزنها حين تتحد أكبر مما كانت تتصور .
 فجرد اتحادها هدد الوفاق الدولي ، ومزق حلف الأطلسي ، وفرض على العالم
 أزمة طاقة زعزعت صناعته ، وأرغم أمريكا على أن تغير - لأول مرة في

التاريخ - موقفها العدواني الذي يساند إسرائيل ، وتتحول من دور الخصم لنا إلى دور الوسيط .

لقد أيقظت ثورة يوليو في ضمائر العرب حلم الوحدة . ولكن أكتوبر أتاح أكثر التجارب إقناعاً بأنها ليست حلاً ، وإنما حقيقة .

والمستقبل بعد أكتوبر سوف يشهد في اعتقادي نمو هذه الحقيقة . ولا ينفي ذلك اشتعال الخلافات بعد أكتوبر ، ولا نقد كل بلد عربي لكل بلد عربي آخر . فهذا النقد دليل في حد ذاته على أن كل عربي أصبح يعتبر البلاد العربية الأخرى بلاده ، له حق نقدها ، والمشاركة في صنع سياستها ، والمعارضة إذا كانت هذه السياسة على غير ما يرغب .

* * *

هذه ستة وجوه للمستقبل الذي أتصوره بعد ٦ أكتوبر .

وهو ليس مستقبلاً من صنع أكتوبر . وإنما هو المستقبل المكتوب سلفاً في كتاب التاريخ . والذي لا مفر منه لأنه حكم طبائع الأشياء .

وفضل أكتوبر هو أنه - بعد أن تجمد هذا المستقبل وتعثر في قيود الهزيمة - جاء يطلق سراحه ، ويحرره من قيوده ، ويقول له : تفضل بأيها المستقبل واصل طريقك . .